فنُّ الخاتمة في شعر أنور العطار (١٩١٣-١٩٧٢م)

الدكتورة ناجية سليمان إبراهيم سليمان(١)

(1) أستاذ مساعد في الأدب والنقد بجامعة بنغازي في ليبيا.

ملخَّص البحث

يتناول هذا البحث الخصائص الفنية والأسلوبية والدلالية للخاتمة عند الشاعر السوري أنور العطار، ويُركِّز على عرض ثلاثة أنواع منها، هي: الخاتمة التصويرية، والخاتمة العاطفية، وخاتمة الحكمة وما يجري مجرى الأمثال، وهذا النوع الأخير يتَّصف بالإيجاز والتكثيف والأسلوب البليغ العالي، بحيث يكون مؤهَّلاً للشُّيوع على الألسنة، وملامسة الجوانب العاطفية والفكرية لفئة كبيرة من الناس، يطيب لهم أن يُنشدوه في مناسبات تتَّصل بموضوعه وجوِّه العام.

_ المقدّمة:

كثيرًا ما يخلو المرءُ مع نفسه، يتأمَّل كتابَ الكون، وأحداثَ الحياة، فإذا بالشوق يحمله على أجنحة غامضة، ويتوقَّف به أمام مشاهد صاغها الجمالُ بأبدع الألوان، ولفَّها الوجدان برداء شَفّاف من الحنين والذكريات والحبِّ.

هكذا أجدُني حين أخلو مع نفسي، فيحملني الشوقُ مُسرعًا إلى دمشق، المدينة التي استضافتني لسنوات، في أثناء تحضيري لرسالة الدكتوراه في الأدب، فإذا بي أقف في رحلة التذكر هذه أمام مشاهدَ تتجلَّى فيها العظمةُ والأصالة، وأخرى يُضيء في جنباتها السِّحرُ والجمال، فضلاً عمّا يُنشَر من صفحات الذِّكريات والمواقف، المليئة بالحنان والحبّ.

لقد ازدادت صلَتي بدمشق وتاريخها وحضارتها وأهلها من خلال دراستي فيها، كما تعمَّقت معرفتي بأدباء الشام، ولا سيَّما المعاصرون، نظرًا لتخصُّصي في الأدب الحديث، واطِّلاعي عن قرب على إنتاج الأدباء الشاميِّين وآثارهم في العصر الحديث.

وممَّن لفت انتباهي، بل واستطاع أن يجتذبني إلى عالمه الشعري، وتفاصيله الدقيقة الرائعة، وآفاقه المنيرة الواسعة، الشاعر الدمشقي الكبير أنور العطار رحمه الله، فقرأت أعماله الكاملة، وعدتُ إلى بلدي ليبيا، وصوته يهمس في مسامعي، ووجدانه يجول في خاطري، وصُوَره تتراءى في فكري، وعالَمُه الشعري يستولي على كياني.

كلُّ ذلك دعاني إلى الكتابة عن أدبه وشعره المتميِّز، لعلِّي أُوَفَّق في نقل انطباعي عن ذلك الأدب الرائع إلى الإخوة القُرّاء، وأبوح لهم بمدَى إعجابي به وتقديري له، فكان أن كتبتُ أولاً بحثًا بعنوان: الصَّدى الوجداني في شعر أنور العطار: قصيدته «بردى» نموذجًا، وتكرَّمت عليَّ مجلة تاريخ دمشق مشكورة بنشره، فكان هذا حافزًا لي لمواصلة الكتابة عن هذه العبقرية النادرة، وها أنا أتقدَّم ببحثي الثاني عنه وعنوانه: فنُّ الخاتمة في شعر أنور العطّار.

ويتألَّف البحث من مقدمة وخاتمة وأربعة مباحث، تحدَّثت في المبحث الأول عن مكانة الخاتمة في النقد القديم والحديث، ومدى اهتمام النُّقّاد والأدباء بها.

وخصَّصت المباحث الثلاثة التالية للحديث عن أنواع الخاتمة ووظائفها في شعر أنور العطار، وعرضتُ بالتفصيل مع الشواهد ثلاثة أنواع منها، هي: الخاتمة التصويرية، والخاتمة العاطفية، وخاتمة الحكمة وما يجري مجرى الأمثال.

ودوَّنتُ في الخاتمة ما انتهى إليه البحث من نتائج.

العطار في السادسة عشرة من عمره

والمنهج المعتمد في البحث هو المنهج الوصفي، الذي يقوم على استقراء المادة العلمية والشواهد، ثم التحليل والتصنيف، ثم العرض والاستنتاج.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أتوجَّه بالشُكر الجزيل إلى الإخوة القائمين على مجلة تاريخ دمشق، وأخصُّ بالشكر المدير المسؤول الدكتور سامي مبيض، ومدير التحرير الدكتور عمار النهار، وأمين التحرير الدكتور محمود الحسن، وسائر الإخوة في مؤسَّسة تاريخ دمشق.

والله الموفق وبه أستعين.

أولاً ـ شيءٍ من ترجمة الشاعر أنور العطار:

لا بدَّ أولاً من التذكير بترجمة الشاعر، قبل الانتقال إلى الدراسة، فالشاعر أنور العطار وُلد في مدينة دمشق عام ١٩١٣، وكان يسكن في حي المهاجرين المُطلّ على المدينة من الجهة الشمالية الغربية، عمل مدرِّسًا للأدب واللغة العربية في بلده سورية، ثم سافر إلى العراق عام ١٩٣٦، ودرَّس الأدب واللغة لمدة أربع سنوات، ثم عاد إلى بلده سورية، واستمرَّ في التدريس، وتولَّى رئاسة ديوان الإنشاء في وزارة المعارف السورية، ثم سافر إلى المملكة العربية السعودية، ودرَّس الأدب في جامعة الرياض بين عامي ١٩٦٤- ١٩٦٦، ثم عاد إلى سورية حيث توفي عام ١٩٧٢، عن عمر بلغ تسعًا وخمسين عامًا.

يُعَدُّ أنور العطار من شعراء الطبقة الأولى في القرن العشرين، وله عشرة دواوين شعرية، تولَّى جَمعها ومراجعتها وتصحيحها وطباعتها في مجموعة كاملة ابنُه المهندس والأديب هاني أنور العطار، ونشرتها دارُ الفكر بدمشق.

ثانياً ـ الخاتمة وأهميتها في الشعر والأدب:

مما لا شكَّ فيه أن الشعراء، قديمًا وحديثًا، اهتموا بالمَطلَع والخاتمة، وتداول النُّقّاد فيما بينهم مصطلحات تتَّصل بهذا الأمر من قبيل: حُسنِ الابتداء والانتهاء، وحُسن الاستِهلال والختام، وحُسن المطلَع والخاتمة، وحُسن المطلَع والمَقطَع[٢].

وقد ألمح النُّقّاد في مصنَّفاتهم إلى أهمية الخاتمة، باعتبارها «آخر ما يَبقى في الأسماعِ، وربَّما حُفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال»[٣]. قال قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)، معلقًا على بيتَ الحطيئة:

(2) يُنظر: خِزانة الأدب، لابن حجة الحموي (ت 887هـ)، 2/ 493.
(3) يُنظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، لابن أبي الإصبع (ت 654هـ)، ص616.

متى تأته تَعشو إلى ضوء ناره
تَجدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقَدِ

«فقد تَصرَّفَ في الأبيات الأُوَل في أصناف المديح المتقدِّم ذكرُها، وأتَى بجمَاع الوَصف وجملة المَديح على سَبيل الاختصار في البيت الأخير»(٤). فَقدامة في إعجابه بالبيت الأخير يُلمح إلى أهميّة الخاتمة في الشِّعر، وإلى أنها ينبغي أن تتضمَّن من المعاني ما يجعلها تتميَّز عن سائر أبيات القصيدة.

ولأهمية الخاتمة أوصى أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) الشعراء والأدباء أن يهتمُّوا بالخاتمة كاهتمامهم بالمطلع والابتداء، فقال: «فينبغي أن يكون آخرُ بيت في قصيدتك أجودَ بيت فيها، وأدخَل في المعنى الذيَ قصدتَ لَه في نظمها، كما فعل ابن الزِّبعرى في آخر قصيدة يعتذر فيها إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ويستعطفه:

فخُذ الفَضيلةَ عَن ذُنُوب قد خَلَت
واقبَلْ تَضَرُّعَ مُستَضيفٍ تائب

فجعل نفسَه مُستضيفًا، ومن حَقِّ المُستَضيف أن يُضافَ، وإذا أُضيفَ فمن حَقِّه أن يُصانَ، وذَكر تَضرُّعَه وتوبتَه ممّا سلفَ، وجعل العفوَ عنه مَع هذه الأحوال فضيلةً، فجَمع في هذا البيت جميعَ ما يُحتاج إليه في طلبَ العَفو»(٥).

فأبو هلال أثنى على هذا البيت، لما فيه من إحاطة بكلِّ ما يُريده الشاعر، حيث استطاع به أن يبلغ مُرادَه، ويصل إلى غرضه، وهو العفو، وجعله أبو هلال شاهدًا على حُسن الخاتمة في الشعر.

ونقل الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) عن الصاحب بن عباد أنه كان كثيرًا ما يُنشِد أبياتَ السّلامي المخزومي:

ونَحنُ أولاء نُطلَبُ من بَعيد لعزَّتنا، ونُدرَكُ من قَريب
تجرَّأنا على الآثام لَمّا رأينا العَفوَ من ثَمَر الذُّنوب

فإذا أنشَدَ البيتَ الأخير قال: «هذا المعنى كان يدور في خواطر النّاس، فيَحومون حوله، ويُرَفرِفونَ عليه، ولا يتوصَّلون إليه، حتى جاء السّلاميُّ فأفصَحَ عنه، وأحسَنَ ما شاءَ»(٦).

وممَّن تناول مسألة الخاتمة في الشعر، من النُّقاد القدامى، ابنُ رشيق القيرواني (ت ٤٦٣هـ)،

صورة نادرة لأنور العطار عليها إهداء لابن عمه

(4) نقد الشعر، لقدامة بن جعفر (ت 337هـ)، ص25.
(5) كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، ص443.
(6) تحسين القبيح وتقبيح الحسن، لأبي منصور الثعالبي (ت 429)، ص24.

العطار في العشرينيات من عمره

قال: «وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون مُحكمًا، لا تُمكن الزيادةُ عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحًا له وجب أن يكون الآخرُ قُفلاً عليه»[٧].

فالخاتمة في رأي ابن رشيق يجب أن تكون ذات بناء متميِّز من حيث المعنى والتصوير، إضافةً إلى كونها تحمل سمات أسلوبية تدلُّ على أن الكلام قد انتهى وتوقَّف عندها، بحيث تبدو كالقفل للقصيدة.

وجاء في كتاب الطِّراز أن أحسن ما جاء في حسن الخاتمة قول المتنبي يمدح سيف الدولة:

قد شرَّفَ اللّه أرضًا أنت ساكنُها
وشَرَّف النّاسَ إذ سوّاكَ إنسانا

قال صاحب الطراز معلِّقًا: «فهذه الخاتمة إذ قرعَتْ سَمعَ السّامع عرف بها أن لا مطمعَ وراءها، ولا غاية بعدها، وهي الغاية المقصودة والبغية المطلوبة، وبها يُعلَم انتهاء الكلام وقطعُه... وغاية حُسن الخاتمة أن يعرف السّامعُ انقضاء القصيدة وكمالَها، فهذه علامة حُسنها ورونقها، ومن ذلك ما قاله بعض الشعراء، يمدح رجلاً استماحَه:

وإنِّي جديرٌ إنْ بلغتُكَ بالمُنى وأنتَ بما أمَّلتُ منكَ جديرُ
فإنْ تُولني منكَ الجميلَ فأهلُه وإلّا فإنِّي عاذرٌ وشَكورُ»[٨].

والخاتمة قد لا يقتصر حسنُها على مزاياها الفنية والدلالية، التي تتفوَّق بها على سائر أبيات القصيدة، بل تصل أحيانًا إلى غاية الجمال والروعة، بحيث تبدو محور القصيدة وعلبها المَدارُ والمُعوَّل، وتمتلك من التأثير في المتلقِّي ما لا تمتلكه القصيدة كلها، ومن ذلك ما جاء في خاتمة قصيدة لابن مُقانا الأشبوني، يمدح فيها بعض أمراء الأندلس، لصلتهم بالنبي صلى اللّه عليه وسلمَ، وكانوا يتمسَّكون بأبّهة المُلك، ولا يُكلِّمون أحدًا إلا من وراء حجاب، فلما وصل الشاعر إلى قوله:

أُنظُرونا نقتَبِسْ من نُوركُم إنه من نور ربِّ العالَمينْ

أمرَ بإزاحة الحجابِ، وقابلَ الشاعرَ بوجهه، وقال له: انظرْ كيف شئتَ، وانبسَطَ مع الشّاعر، وأحسن إليه[٩].

(7) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني (ت 463هـ)، 1/ 239.
(8) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي (ت 745هـ)، 3/ 105.
(9) يُنظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقّري التِلمساني (ت 1041هـ)، 1/ 214 و434.

صورة العطار وهو أستاذ في دار المعلمين

وفي العصر الحديث كثر حديثُ النُّقاد عن أهمية الخاتمة ومزاياها ووظائفها، وخصائصها الفنية والدلالية، وعدَّدوا في ضوء اللسانيات الحديثة أنواعًا مختلفة للمقدِّمة، لا مجال لذكرها والتعرُّض لها[10]، كما انشغل كثير من الأدباء بفنّ الخاتمة، إلى درجة أنها أصبحت عندهم محور القصيدة وأساسها، وموطن الطاقة الشعورية، وغاية المعنى المراد، وأجمل ما في العمل الفني، حتّى إن بعضَهم يصحُّ القول فيه بأنه يكتب القصيدة من أجل خاتمتها، أما سائر الأبيات فهي بمثابة التمهيد أو التوطئة أو الهامش، كما هو الشأن عند الشاعر السوري عمر أبي ريشة[11].

والشاعر الدمشقي أنور العطار كان ممَّن اهتمُّوا بالخاتمة اهتمامًا بالغًا، فهي عنده ذات طاقات شعورية كبيرة، ولا تخلو من صور مبتدعة، وأحيانًا تختصر موضوعَ القصيدة ومشاهدَها، أو تكون همسةً يبقى صداها في سمع القارئ، أو مشهدًا يظلُّ ماثلاً أمام حسِّه، أو حكمة تتجاذب فكره ووجدانه للتأمُّل والاعتبار، إلى غير ذلك من المزايا الدلالية والأسلوبية والجمالية التي تتَّصف بها الخاتمة عنده، كما سيظهر في المباحث التالية.

ممّا سبق يتَّضح أن القدماء والمحدثين، على حدٍّ سواء، اهتمُّوا بالخاتمة، فدعا النُّقادِ إلى إجادتها والتفنُّن في صوغها باعتبارها آخر ما يبقى في الأسماع، كما دعوا إلى الاهتمام بالمَطلع باعتباره يفتح مغاليق القلوب، ويُهيِّئ الحواسَّ للاستماع والتأمُّل.

وفي المقابل فإن الأدباء والشعراء أولَوا الخاتمة اهتمامًا كبيرًا، ولا سيَّما في العصر العباسي وما بعده، فاشتهر كثير من الشعراء بالخواتيم المُتقَنة، كأبي نواس وأبي تمام والمتنبي وغيرهم، واستمرَّ الاهتمام بها في العصر الحاضر، بل ازداد وتنوَّعَ، وساعد الشعراء على ذلك ما تتَّصف به أعمالهم المعاصرة من وحدة الموضوع، على حين أن الأعمال القديمة كانت تقوم على وحدة البيت، ولذلك أصبح من الواجب على الأدباء المعاصرين أن يهتمُّوا بالخاتمة، مراعاة لوحدة الموضوع، والنموِّ المنطقي للأحداث، وضرورة الإيذان بالنهاية، وتهيئة القارئ لذلك.

ثالثاً _ وظائف الخاتمة وأنواعها عند أنور العطار:

إنَّ استقراء النماذج الشعرية العالية، عند كبار الشعراء في العصر الحديث، يُفضي إلى القول بوجود تنوُّع كبير في صياغة الخاتمة لديهم، وفي الأغراض الفنيّة والدلالية والوجدانية التي تُؤدِّيها في القصيدة، ومما لا شكَّ فيه أن المقارنة بين وظائف الخاتمة وأنواعها، وطرائق الصَّوغ

(10) يُنظر في أنواع الخاتمة: مجلة بيت الشعر الإلكترونية في الموصل، بحث «القصيدة العمودية، جماليات الخاتمة، قراءة في نماذج من الشعر الموصلي المعاصر» للدكتور جاسم محمد جاسم.
(11) يُنظر: موسوعة أمراء الشعر العربي، لعباس صادق، ص316.

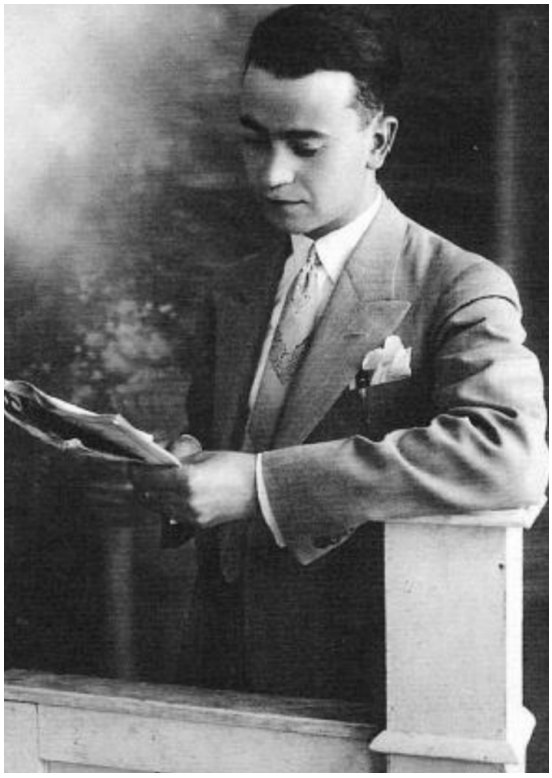

العطار في ريعان شبابه

الفني لها، يحتاج إلى أكثر من بحث، وربَّما يحتاج إلى كتاب مستقلّ، ومع أن كثيراً من النقّاد قد عالجوا هذه المسألة في مؤلّفات خاصة، وفي أبحاث مستقلّة، إلا أن الباحث ما يزال يجد جديداً في هذا الموضوع، الذي يحتاج بدوره إلى دراسات إضافية، ومزيد من العمق، لا سيَّما في النواحي التصويرية والشعورية والأسلوبية، وتحديد مدى انعكاس الخاتمة على كامل أجزاء القصيدة، وتأثيره الفني والدلالي.

وهذا البحث سيقتصر على دراسة الخاتمة عند أنور العطار، والحديث عن أنواعها ووظائفها، لأن المقارنات والاستقصاء مما لا يتَّسع له بحث واحد.

فالشاعر أنور العطار كان من أولئك الشعراء المعاصرين الذين اهتمُّوا بالخاتمة، وخصُّوها بكلِّ عناية، حتّى إنه في القصائد التي نشرها، في الصُّحف والمجلات، كان يَفصل الخاتمة عن أبيات القصيدة، بأنواع التنسيقات السائدة، لتكون ظاهرة بيِّنة للقارئ، وكأنَّه يريد من القارئ أن يُطيل الوقوف عليها، والتأمُّل في المعاني والصُّوَر، واستشفاف ما تختزنه من مشاعر وأحاسيس، والبقاء معها قليلاً بعد الانتهاء من القراءة.

وتتميَّز الخاتمة عنده بعدّة أمور، من أهمها:

_ الاختلاف في عدد الأبيات، فقد تكون بيتًا واحداً أو بيتين أو أكثر، لكنها في الغالب لا تتجاوز ثلاثة أبيات.

_ في معظم القصائد المطولة تجيء الخاتمة بعد تمهيد موجز، فعندما توشك القصيدة على الانتهاء يبدأ بالتمهيد للخاتمة، ويستغرق ذلك التمهيدُ عدَّةَ أبيات، ثم يجيء الختام.

_ في كثير من القصائد القصيرة يستغني عن التمهيد، ويأتي مباشرة بالخاتمة، وفي هذه الحالة تكون الخاتمة إمّا غير متوقعة، وإمّا أنها صرَّحت بما سكتَ عنه في أثناء القصيدة.

_ تحمل الخاتمةُ عنده من حيث المعاني والصُّور والمشاعر ما تحمله قصيدة كاملة من ذلك، فمع أنها تكون بيتًا أو بيتين في الغالب إلا أنَّه يُحمِّلها مادّةً كثيفة، وصوراً مبتكرة، وأحاسيس قويّة، فتأتي في غاية الحسن والتأثير في القارئ.

_ معظم الخواتيم عند أنور العطار تتناسب مع النموّ المنطقي للمعاني والمشاعر في القصيدة، لكنَّها تبوح وتُصرِّح عادةً بجديد لم تَبحْ به سائر الأبيات، ولها أفقٌ من المعاني والإيحاءات والأحاسيس يتداخل مع أفق القصيدة، وفي نفس الوقت له خصوصيّته وكيانه المستقلّ.

_ تُمثِّل الخاتمةُ عند العطار لوحة فنِّية قائمة بذاتها، تُعيد رسمَ الجوِّ العامِّ للقصيدة، وتمدُّها بظلال وارفة من الحسن والجمال، وتتضمَّن صوراً ساكنة، أو صرخة صاخبة، أو شعوراً ملتهباً، أو حكمة خالدة، أو خلاصةً لروح القصيدة وجوهرها.

وفيما يلي عرض لثلاثة أنواع من الخاتمة ووظائفها عند الشاعر الدمشقي أنور العطار، بحسب ما تسمح به طبيعة البحث، وهي: الخاتمة التصويرية، والخاتمة العاطفية، وخاتمة الحكمة وما يجري مجرى الأمثال.

العطار في الثلاثينات من عمره

١_ الخاتمة التصويرية:

في هذا النوع من الخواتيم يسترسل الشاعر في أبيات القصيدة، ويستوفي الموضوع من النواحي الفكرية والفنية والأسلوبية، ثم يصوغ الخاتمة على شكل صورة فنية ساكنة في الغالب، ولكنها متكلِّمة بكل ما يريده الشاعر من الأحاسيس والمواقف والتجربة الشعرية المتميِّزة.

ومن أمثلة الخاتمة التصويرية عند العطار ما جاء في قصيدته «إلى أمِّي»، التي افتتح بها ديوانه البواكير، وأراد أن يُعبِّر في هذه القصيدة عن إهداء الديوان إلى أمّه، ومن الطبيعيّ أن تكون هذه الهدية مختلفة عما يتداوله الناس بينهم من الهدايا، إنها ليست زجاجة عطر فوّاح، وليست لباساً يُبهج النفس بألوانه، ولا ذهباً يعانق المعاصم ويُجاور النحور، إنها هديّة من نوع مختلف، كلمات رقيقة، وأشجان نفس غارقة في الوجود، ونبضات قلب مُفعَم بالحياة والخوف من المجهول، وصور من الواقع والذكريات والخيال، صاغها قلم شاعر مُبدع، اختلط حبره بشكوى الروح، وماجت في سطوره أقوى أعاصير الشَّجى والأحزان.

يبدأ الشاعر قصيدته بقوله[١٢]:

إليك شعري مائجًا بالأسى مُنتَزَعًا من بُؤسيَ الفاجِعِ

إنَّه الشِّعر، الذي يفوق الدُّرَر في قيمته، ويتفوَّق على العطور في عبيره المسكوب من نبضات القلوب، وأسرار النفوس، الشعر الذي خطَّته أنامل شاعر لم يتصالَح بعدُ مع الواقع، ولم تَمنحْه الحياةُ السَّكينة والأمان، ولم تكتحل جفونُه بوميضَ الأمل، بل ها هو يتلقَّى من الحياة الصَّفعات، ويتلوَّى في صحرائها متَّكئًا على كبده التي مزَّقتها سهام المصائب والضَّياع، وطالما سَخِر منها موحِشُ السَّراب[١٣]:

أنّاتُ قلبٍ صادقٍ حِسُّهُ يبكي سَرابَ الأمَلِ الخادِعِ

(12) أنور العطار: الأعمال الشعرية الكاملة، ص83.
(13) الأعمال الشعرية الكاملة ص-83 84.

العطار مقلداً بالأوسمة تقديراً لأدبه وعبقريته الشعرية

عَليه من عبءِ الأسى طابَعٌ أحبِبْ به في الشِّعرِ من طابَع

يَنمُّ عن قَلبٍ فَجيعِ المُنَى ذاهبةٌ مثل الضُّحى الماتِع

إنَّه يُهدي لأمِّه أشعارَه، التي تحمل نبضَ قلبه، وتطلُّعات روحه، وكان يتمنَّى لو أن قلبَه مليءٌ بالسعادة، مزدحِمٌ بالأمنيات، نشوان بالأمل، فإنَّ ذلك ربَّما يُوصل لأمِّه بعضَ السرور والتَّفاؤل، ولكن ماذا يصنع إذا كان قلبُه الذي يصوغ الشعرَ غارقًا بالهموم والآلام، تائهًا وسط ضجيج الحياة، تتجاذبُه المصائب، وتمزِّقه أمواجُ الطُّوفان؟

فكأنَّ لسان حاله يقول: هذه هديَّتي يا أمِّي، بما تحمله من الشجو والشَّجن، فاقبليها ولا تلوميني، فلو كنتُ أمتلك غير هذا القلب، أو أعيش في غير هذا العالَم، لأرسلتُ إليك شعرًا ترقصُ حواشيه، وتُغنِّي قوافيه، وتهتزُّ أعطافه نَشوةً وفرحًا.

وهنا يصل الشاعر إلى نهاية القصيدة، فيُرسل بين يدي الخاتمة بيتين، أراد بهما التمهيد لها، يُركِّز فيهما على رحيل الآمال عن قلبه، ويُهيِّئ القارئ بهما للبيت الأخير، يقول[14]:

أيَّتُها الآمالُ هل رَجعةٌ أم المُولِّي ليسَ بالرَّاجِع

كُنت لهذا القَلبِ أُلهيّةً يَحيَا بها في يأسه القاطِع

فهذان البيتان هما التمهيد للخاتمة، ومن الواضح فيهما أنه انتقى من موضوع قصيدته، التي يسودها جوُّ الحزن والكآبة، عنصرًا جزئيًّا، أراد أن يُظهرَه بوضوح، ليُفضي منه إلى الخاتمة، فقد ركَّز على رحيل الآمال، أو فُقدانها، وأثر ذلك في القلبَ والوجدان، فهو يُسائلُ الآمال، التي ذاق حلاوتها ثم رحلت عنه، يُسائلها هل لها رَجعةٌ، لكنَّه ييأس من رجعتها، مقتنعًا أن ما يرحل لا يعود، وطالما كان القلب يسلو بها عن أحزانه وبُؤسه فمع رحيلها لا بدَّ أن موعده مع اليأس حتميٌّ، وليس له نهاية حتى تنتهي الحياة.

وإذ لا بدَّ من مقارعة اليأس، والاكتواء بناره ليلَ نهارَ، فلا بأسَ من استعادة الذكريات، التي كان الأمل ينثرُ عبيرَه في مشاهدها، والنُّور ينشرَ بريقه على معاهدها، لعل في ذلك سلوى للقلب المُتعَب الحزين، ولكنَّ كلَّ ما يجده الشاعر من بقايا الذكريات[15]:

إضمامةٌ من زَهَرٍ ذابِلٍ منثورةٌ فوقَ ثَرًى دامِع

وبهذه الصورة الساكنة، التي تُعبِّر عن وقع الذكريات في قلب الشاعر ووجدانه، يختم الشاعر

(14) الأعمال الشعرية الكاملة ص84.
(15) الأعمال الشعرية الكاملة ص84.

قصيدته، ويُوصل صوته إلى القارئ، وكأنَّه يريد أن يقول: لا تلوموني على ما أجد في أعماقي من الأحزان، ولا تطلبوا منِّي أن أبحث عن المباهج والسرور في شريط الذكريات، لقد بحثتُ وفتَّشت، فلم أجد إلا باقة من الورد الذابل منثورة فوق التراب الباكي، فخذوا مني هذه الصورة، وأعيدوا الحياة للورد إن استطعتم، أو جفِّفوا بمناديل الأمل دموع الثرى الباكي، وعندها ستجدوني على عرش السعادة والسرور.

تمثِّل هذه الخاتمة نموذجًا من نماذج الخواتيم التصويرية عند أنور العطار، ومن الواضح أنه في هذه الحالة يُقدِّم للقارئ صورة جميلة، تختزن في حواشيها كلَّ أحاسيس الشاعر، وما يدور في وجدانه من خلجات وانفعالات، إنها صورة ساكنة صامتة، ولكنها ناطقة بكلِّ ما أراده الشاعر من المعاني والإيحاءات والانفعالات.

٢_ الخاتمة العاطفية:

إنَّ الحديث عن العاطفة في الخاتمة فيه بعضُ التجوُّز، لأنَّ الشعر كلُّه عاطفة، والقصيدة من أولها إلى آخرها ترتسم فيها عاطفة الشاعر وظلال وجدانه، كما أن الحديث عن خاتمة تصويرية وأخرى عاطفية ليس دقيقًا بحسب منظار العقل، بسبب التداخل بين أساليب التعبير في الشعر، فلا عاطفة بلا صُور، ولا صُوَر من دون رهافة شعور، وإحساس عميق.

فالتقسيم المُقترَح لأنواع الخاتمة إنَّما هو بحسب الصفة الغالبة، أو الصيغة الأسلوبية والوجدانية المُسيطرة، أو المزايا الفنية الأكثر وضوحًا وظهورًا.

والخاتمة العاطفية هي التي تتجلَّى فيها أحاسيسُ الشاعر في أدقِّ تفاصيلها، وأعمَق ألوانها، وأشدِّ حالاتها تدفُّقًا وهيجانًا، وفيها يكون جهدُ الشاعر أن يُوصلَ للقارئ ما يُسمَّى بالدَّفقة الشعورية الأخيرة، التي تفوق كلَّ المشاعر في القصيدة، وفي نفس الوقت تستوعبها وتُحيط بها.

ومن أمثلة الخاتمة العاطفية في شعر العطار ما جاء في قصيدته «آذار»، إحدى قصائده المشهورة في ديوان «ظلال الأيام»، وفي هذه القصيدة يصف الشاعر جمال الربيع في آذار، فيُصوِّر الأرض وآذار على أنهما عاشقان، وهذا العشق هو سرُّ الحياة والجمال في الأرض، إذ استطاع آذار بقبلاته أن يرسم الجمال في خدود الأرض، فإذا بها تكتسي أجمل الثياب، وتتزيَّن بألطف الورود، يقول مخاطبًا محبوبته[١٦]:

هَلُمِّي انظُري قُبُلات الربيعِ ... على معطَف السَّهلِ والرّابيهْ
وآذارُ يلعبُ فوقَ المُروجِ ... كما تلعَبُ الطِّفلة اللاهيهْ
يُعانقُها وهو جَمُّ الحَنين ... فتُغريه بالمُقلة الرّانيَهْ
ويُلقي عليها وشاحَ الخلودِ ... وألوانَه العَذبةَ السّابيهْ
ويَبعَثُ فيها شُعاعَ الهَوى ... فتهتزُّ من وَهجِه صابيهْ

ويستمرُّ الشاعر على هذه الشاكلة في تصوير الربيع وجمال وجه الأرض والنسيم في آذار، فيبلغ الغاية من الإتقان والجودة في دقة الوصف وعذوبته، ثم يعقد مقارنة، طرفها الأول: آذار

(16) الأعمال الشعرية الكاملة ص623.

العطار مع عبد الغني العطري صاحب مجلة الدنيا السورية وعبد الخالق فريد

والأرض وما بينهما من الحبِّ والعشق. وطرفها الثاني: هو ومحبوبته والحبُّ الذي بينهما، وفي هذه المقارنة يتوقّع القارئ أن الحبَّ يستطيع أن يملأ قلبَ الشاعر بالفرح والسرور، كما استطاع الحبُّ بين آذار والأرض أن يُحوِّلها إلى لوحة رائعة من الحسن والجمال، ولا يشاءُ الشاعر أن يقطع على القارئ ما يتوقّعه وينتظره، فاستطردَ في مخاطبة محبوبته، يدعوها إلى استرجاع الذكريات، وقصص الهوى، والتحليق مع أحلام آذار ونسائمه اللطيفة، يقول[١٧]:

تَعالَي نُوثِّقْ عُهودَ الهَوى ونَسردْ حكاياتها النائيهْ
ونُوقظْ لياليَها الغاليات ولولا الهَوى لم تكنْ غاليهْ
أقاصيصُ ملءُ الرُبا والوِهاد تَناثَرْنَ من أكبُدٍ شاكيهْ

فالشاعر يسير حتى الآن مع ما ينتظره القارئ، وما يتوقّعه من ظهور ربيع آخر في القلوب يُحاكي الربيع على وجه الأرض، ويرجو الشاعر ذلك، لكنَّ الحبَّ الذي أحيا الأرضَ في آذار قد لا يستطيع أن يُحيي القلوب التي انسكبَ فيها الألم والشَّكوى والنار، يقول[١٨]:

تَعالَي إلى الصَّدر تَلقَيْ به شكايات أضلاعه الحانيهْ
فلا البثُّ يُهدئُ تَحنانَه فيَرتاحَ من شَجوه ثانيهْ
ولا الحُبُّ يُوليه بَعضَ المُنى فيَفرَحَ بالمنحة الرّاضيهْ
ويُرسلَ أنغامَه حُلوةً فتَحيا بها المُهَجُ الدّاميهْ

(17) الأعمال الشعرية الكاملة ص625.
(18) الأعمال الشعرية الكاملة ص-625 626.

العطار مع الشاعر الياس فرحات

في هذه الأبيات يظهر أن الشاعر كان يأمُل أن يَحيا قلبُه بالحبِّ، كما تحيا الأرضُ بقبلات آذار، ولكن هنا عالم مختلف تمامًا، فالصَّدر لم يستجبْ للحبِّ، لمَا فيه من الشَّكوى والألم، والحبُّ ذاته عاجز عن بَثِّ الأمل في هذا الصدر، فكيف للسرور أن يَعمر هذا القلب، وكيف للحبِّ أن يبتسم فوق أشلاء كبد مبعثرة؟

لقد كانت الأبيات السابقة بمثابة التمهيد للخاتمة الأولى، وأقول الأولى لأن القصيدة تتألف من مشهدين، مشهد الأرض في الربيع، ومشهد القلب الذي ليس له ربيع. فجاءت الخاتمة الأولى على النحو[19]:

ولمّا اقتَسمْنا دموعَ العيونِ تفرَّدتُ بالدَّمعة القاسيهْ
فلا هيَ تسكنُ شعبَ الجُفونِ فتَخفى، ولا هي بالهاميهْ

ففي هذه الخاتمة تظهر كلُّ مشاعر البؤس والمعاناة، التي يعيشها الشاعر، فقد كان نصيبُه من الحياة الدمعة القاسية، التي تظهر في عيونه صُلبةً متحجِّرة، لا تختفي خلف الجفون، ولا تجري على الخدود، فهي أبدًا في مكانها، مع ما يصحَبُها من ألم وحزن وبكاء.

وهذه الخاتمة فيها صورة جميلةٌ مبتكرة للدمعة القاسية، التي تجرح العيون، ولا تبرح مكانَها، ولكنَّ الأظهر هنا هو مشاعر الشَّجن والألم والضياع، التي وصلتْ ذروتَها في هذين البيتين، بفضل ما يمتلكه الشاعر من قدرة فائقة على التعبير والتصوير ونقل الأحاسيس، ومثل هذه الخاتمة هي التي أطلقتُ عليها تسمية الخاتمة العاطفية.

وفي المشهد الثاني من قصيدة آذار يلتفتُ الشاعر إلى الحديث عن قلبه الذي ليس له ربيع، فآذار استطاع بقبلاته وسحره أن ينثر الجمال والسرور في الأرض والسماء، والأفق والنسيم، والليل والنهار، لكن قلب الشاعر بقي بلا ربيع، لأن الحبَّ لا يستطيع أن يَبيت في صدر تزدحم فيه الهموم، كما أنَّ محبوبة الشاعر هي الأخرى مثقلة بالآلام والضَّياع، فلا تمتلك ما يمتلكه آذار من السِّحر والأسرار، لتجعل قلبَ حبيبها رياضًا يُخيِّم فيها الحب، وتُغَرِّد في فضائها طيور السعادة، فهي حائرة تُقلِّب نظرَها في السماء دونَما هدف أو تركيز، يقول مخاطبًا محبوبته[20]:

أطَلت رُنُوَّك نحوَ السَّماء وأطرَقت راهبةً خاشيهْ
فرابَتْكَ ضفّةُ هذي الحَياة وخفت مَن الضِّفّة الثَانيهْ
حَنانَيك لا تَسبَحي في الدُّموع ولا تُرهبي الرّاحةَ النّاجيهْ
فليسَ تَرُدُّ عليكِ الدُّموعُ سِوى حُرقةٍ مُرّةٍ وارِيهْ

(19) الأعمال الشعرية الكاملة ص626.
(20) الأعمال الشعرية الكاملة ص-226 227.

العطار مع ميخائيل نعيمة

لقد رأينا في الطرف الأول من المقارنة آذار والأرض والحبُّ، حيث استطاع آذار بسحره وعنفوانه وخلوِّه من الهموم أن ينشر الحبَّ على وجه محبوبته الأرض، وأن يُترجمَه ألوانًا ووردًا وعطورًا، لكن ما حالُ محبوبة الشاعر التي يُنتَظر منها أن تفعل في قلبه ما فعله آذارَ في الأرض؟

للأسف إنها لا تمتلك عظمةَ آذار وسحرَه، وخلوَّ باله من جروح الحياة وغصص الواقع المرّ، إنها إنسانة ضعيفة أثقلتها المآسي والهموم، وقلبها الصافي يستغيث من ضجيج الحياة، وصخب المصائب، فلم تعد تمتلك إلا النظرة الحائرة تُرسلها في الآفاق، والدُّموعَ الغزيرة تبعثها رسولاً بين الجفن الباكي والأرض العطشى، فهيهات للحبِّ أن يطرقَ قلبها الكئيب، وهيهات لها أن تمنح الشاعر جذوةً من الأمل والحب!

وإذا كانت هذه حال المحبوبة التي تُقابل آذار، فما حال الشاعر الذي يُقابلُ الأرضَ في المقارنة؟ وإذ علمنا أن الأرضَ كانت مستعَدَّةً لتلقي الحبِّ والحياة، فاستجابت لآذار، وأخرجت لوحات من الجمال والإبداع، فهل كان الشاعر مثلها مُستعدًّا للحب، خاليَ القلبِ من كدرِ الحياة ونوائبها؟

يستطرد الشاعر في هذا الجانب، فيصف حالَه وآلامَه، وأنَّه لا يَذوقُ سعادةً إلا حين ينفصلُ عن الواقع، ويُحلِّق على أجنحة الخيال، فيعيش لحظات حلوة في عالم آخر غير العالم الكئيب الذي يعرفه، يقول[21]:

وأطلَلتُ من فُرُجات الضَّباب ... على عالَم الرِّمَم البالية
تجرَّدتُ من صفة الهالكينَ ... ومُتِّعتُ بالصِّفة الباقية
وأُنسيتُ أنّي ابنُ هَذا التُّراب ... وضَجعته المُرّة الباغية
هَلُمِّي افتحي كوّةً للضِّياء ... لننسى بها الكوّةَ الدّاجية
فليسَ لنا أملٌ بالرَّبيع ... ونَفحته العَذبة السّارية

وكما يبدو فلا بدَّ بعد التحليق في عالم الخيال من العودة إلى الواقع، وسرعان ما تختفي المشاهد الجميلة، ويرحل السرور والأمنيات، ويجد المرء نفسه وجهًا لوجه مع تقلبات الحياة ومرارتها، ومع وحشية الزمان وقسوة الأيام.

وإزاء هذا الواقع المرّ قد يلوم الشاعر حبيبته بأنها عاجزة عن مداراة الحبِّ وإحياء قلب

(21) الأعمال الشعرية الكاملة ص-627 628.

شاعرها، كما فعل آذار مع الحبِّ والأرض، وقد تلومه الحبيبة بأنه يملك قلبًا تزدحم فيه النوائب والمآسي، فلا مكان للحبِّ فيه، وقد يلومان معًا الحبَّ بأنه أتاهما محطَّمَ النَّفس، كسيرَ الجناح، باكيَ العيون، متكاسلاً عن مباشرة القلوب وجلائها. كلُّ هذا أحسَّ به الشَاعر، فأخذ يعتذر لمحبوبته ويلومها في آنٍ واحد، يقول[٢٢]:

أفاتَك أنِّيَ جَمُّ الجروح أعيشُ على يَدك الآسيهْ
فوَلَّيتَ عنِّي وخَلَّفتني أحنُّ إلى السّاعة الماضيهْ

وهذان البيتان بمثابة التمهيد للخاتمة الثانية، وفيهما يستسلم الشاعر للحياة، ويحكي ما بقلبه من جروح وآلام، ويعترف لمحبوبته أنه مُثقَل بالأوجاع، وليس له من طبيب إلا يدها التي تمنحه الحنان والدِّفء، ولكن فقَدَ الآن كلَّ شيء بعد أن تركته المحبوبة ورحلت، فبقي تائهًا في وحشة الدُّروب، خاليَ القلب من كلِّ أمل، مستسلمًا للحياة، لا يرى الخلاص إلا بالموت.

العطار مع الشاعر القروي رشيد سليم الخوري

وهنا ينتهي إلى الخاتمة، فيقول[٢٣]:

أموتُ وقيثارتي ما تزالُ تَنوحُ على مهجتي الصّاديهْ

إنَّه يشتاق للموت، ويرى فيه الخلاصَ، ولكن هيهات له الخلاص، فإنه وإنْ مات سيبقى صدى روحه يصرخ باكيًا متألِّمًا على قلبه المحروم من الحب، المتعطِّش للأمل.

ومن الواضح أن هذا البيت، الذي ختم به المشهدَ الثاني من القصيدة، تجري بين كلماته سيولٌ وجداول من الإحساس الشَّجي، إنَّه أشبه بموجة اقتُطعت من بحرٍ هائج، فحملت كلَّ ما يتخيَّله الفكر والحسّ والوجدان من ألوان العذاب، وطعم الخَطوب، وأنينَ النفوس المتعبة.

ومثل هذه الخاتمة جديرة بأن تُسمَّى بالخاتمة العاطفية أو الوجدانية، لما تحمله من إحساس عميق صاخب، تنتهي القصيدة ويبقى مخيِّمًا على وجدان القارئ وروحه.

مما سبق يتَّضح أن الخاتمة العاطفية من الأنواع المهمّة في أدب أنور العطار، وغالبًا ما يُضمِّنها إحساسًا كبيرًا، يتفوَّق على كل الأحاسيس في القصيدة، ويتولَّى التصريح عما في وجدان الشاعر وقلبه من فيضان وازدحام.

(22) الأعمال الشعرية الكاملة ص629.
(23) الأعمال الشعرية الكاملة ص629.

٣_ خاتمة الحكمة وما يجري مجرى الأمثال:

الحكمة بمعناها العام: كلُّ ما يُسهم في زيادة العلم ومنع الجهل، ويُطلَق لفظُها على كلِّ كلام يتَّصف بالإيجاز والمعنى الدقيق المُفيد.

والمَثَل هو: القول السائر على الألسنة، المُمَثَّل مَضربُه بمَورده، والمراد بالمورد: الحالة الأصلية التي ورد فيها الكَلام، وبالمضرب الحالة المشبَّهة بها التي أُريدَت بالكلام[٢٤]. نحو قولهم: بَرِّقْ لمَن لا يَعرِفُكَ. أي: هَدِّدْ مَن لا علمَ له بك[٢٥].

الأعمال الكاملة لأنور العطار

وهذا التعريف يعني أن المَثَلَ كلامٌ نشأ مرتبطًا بحادثة معيّنة، فتداوله الناس، واستشهدوا به على وقوع حوادث مُشابهة. فلا بدّ للمثل من قصة ارتبط بها نشوءُه، ثم لا بدَّ فيه من الشيوع والتداول على ألسنة الناس، فإذا لم يُكتَب له الشيوع فلا يُعَدُّ من الأمثال، قال أبو هلال العسكري: «وقد يأتي القائل بما يَحسُن أن يُتَمَثَّل به، إلا أنه لا يتَّفق أن يسير، فَلا يكون مثلاً»[٢٦].

والأمثال عامّةً هي نوع من الحكمة، لأنها تقوم على الإيجاز والمعنى الدقيق الذي ينطوي تحته الكثير من الحوادث المتشابهة.

وأما ما يجري مجرى الأمثال فهو كلام شعري أو نثري، مستقلٌّ بذاته، مُشتمل على حكمة أو موعظة أو عبرة، طابقَت وقائعَ عامّةً جاريةً بين الناس، فاستحسنوه وتداولوه حتى شاع بينهم[٢٧]، ويختلف عن الأمثال في أنه يكون من ابتكار صاحبه، وغير مرتبط بقصّة أو حادثة معيَّنة، وقد يكون له مناسبة أو قصّة، لكنه لم يُنقَل عن قدماء العرب[٢٨].

والأقوال التي جرت مجرى الأمثال متنوعة المصادر، فمنها ما جاء في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. ومنها ما ورد في الحديث الشريف كقول النبي صلى الله عليه وسلم: «رفقًا بالقوارير»[٢٩].

ومنها ما ورد في النثر والخطب، وهو كثير جدًّا، نحو: «مَن جَهِلَ قَدرَ نَفسِه كانَ بِقَدرِ غَيرِه

(24) يُنظر: زهر الأكم في الأمثال والحكم، لنور الدين اليوسي (ت 1102هـ)، تحقيق: د محمد حجي، ود محمد الأخضر، ط1، الدار البيضاء 1981، 1/ 20.
(25) مجمع الأمثال، للميداني (ت 518هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، 1/ 90.
(26) جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري (ت 395هـ)، دار الفكر، بيروت 1/ 7.
(27) يُنظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي (ت 821هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1/ 349.
(28) يُنظر: الأمثال، لابن سلام (ت 224هـ)، تحقيق: الدكتور عبد المجيد قطامش، ط1، دار المأمون، بيروت1980، ص 34.
(29) ورد في مسند الإمام أحمد بلفظ: ارفُقْ بالقوارير. يُنظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت 241هـ)، 20/ 164. والحديث عند البخاري ومسلم بلفظ آخر.

أجهَلَ»[٣٠]. ومنها ما ورد في الشعر كقول المتنبي[٣١]:

وإذا كانت النُفوسُ كِبارًا تَعِبَت في مرادها الأجسامُ

ولعلَّ إعجاب الناس بالأمثال، وما جرى مجراها من الكلام، قد دفع بعض الأدباء الحاذقين إلى تعمُّد ابتكار الكلام البليغ، المتَّصف بالإيجاز والاستقلال، وتضمينه شيئًا من الحكم والمواعظ والعبر، وإرساله بين الناس، ليجري بينهم مجرى الأمثال[٣٢]، وأشهر مَن عُرف بذلك من الشعراء المتنبي[٣٣]، ومن الكُتّاب الحريري صاحب المقامات.

وتفيض دواوين الشاعر أنور العطار بالأبيات، التي تجري مجرى الأمثال، ولا سيَّما في الخواتيم، لما تتضمَّنه من حكم أو كلام بليغ موجز يصلح لكل زمان ومكان، وينطبق على عدد غير محدود من الحوادث والأحوال الإنسانية.

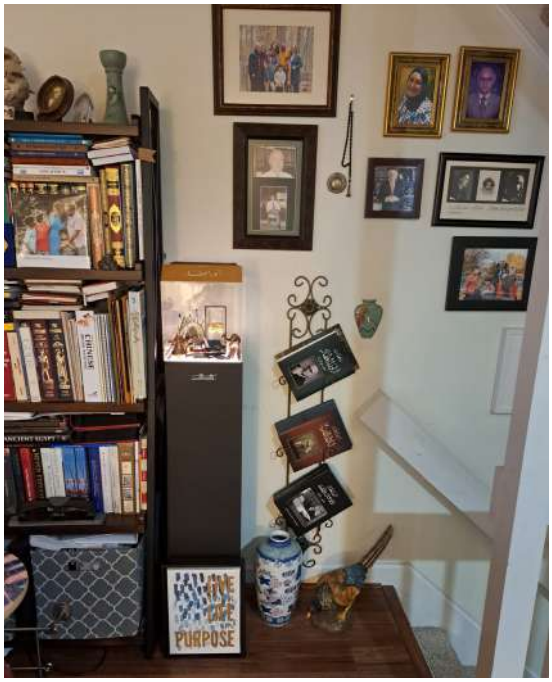

مقتنيات وذكريات العطار في منزل ابنه الدكتور هاني في أمريكا

وسأعرض فيما يلي نماذج من الخواتيم، عند أنور العطار، التي تجري مجرى الأمثال، وسأكتفي بعرض الخاتمة المقصودة دون القصيدة، لأن المسألة هنا لا ترتبط إلا بها.

فمن أمثلة هذا النوع من الخواتيم قوله في خاتمة قصيدته «النهر الملول» من ديوانه «منعطف النهر»[٣٤]:

رُبَّ نَهرٍ مُعذَّبٍ ملَّ من طُول ما سَرَبْ
وتَناهَى به المَطافُ إلى البَحرِ فاحتَجَبْ

فهذان البيتان فيهما حكمة، مضمونها أنَّ الإنسان كالنهر الجاري، يُعاني تعبَ المسير في دروب الحياة، ثم ينتهي به المطاف إلى الموت. وهي بلا شكّ تختصر رحلة الإنسان القصيرة في هذه الدنيا، وتنطبق على كلِّ ذي روح، كما تصلح للاستشهاد بها في الخطب والمجالس والأدب.

ويقول في خاتمة قصيدته «سنا الأحلام» من ديوانه «منعطف النهر أيضًا»[٣٥]:

إنَّ سَنا الأحلام رحبُ المَدى وليسَ في الكون ضياءٌ سواه

ففي هذه الخاتمة يُمجِّد الشاعر عالمَ الأحلام، باعتباره المَلاذ الآمنَ لكلِّ المعذَّبين، فهم لا يرون السرور إلا في أحلامهم، وهذه الخاتمة تصلح لأن تجري مجرى الأمثال في كلام الناس، لما

(30) التمثيل والمحاضرة، للثعالبي (ت 429هـ)، ص 439.
(31) شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي، ص1225.
(32) يُنظر: الكليات للكفوي (ت 1094هـ)، ص 77.
(33) يُنظر: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، للدكتور شوقي ضيف، ص 326.
(34) الأعمال الشعرية الكاملة ص167
(35) الأعمال الشعرية الكاملة ص193.

فيها من معنًى جميل، يطيب لكلِّ إنسانٍ أن يُردِّده في لحظات الحزن واليأس.

ويتحدَّث العطار في قصيدته «الأنشودة الباقية» من ديوانه «وادي الأحلام» عن خلود الحبِّ، وبقائه في القلوب رغم الفراق، ثم يختم بقوله[٣٦]:

سنَبقى على العَهد حتَّى نموتَ ونُدرَجَ في الرِّمَم الباليهْ
فعيشي لقَلبي هوًى خالدًا أعشْ لك أُنشودَةً باقيهْ

ومن الواضح ما في هذين البيتَين من معانٍ لطيفة عذبة، يطيب لكلِّ عاشق أن يردِّدها على مَسمَعٍ من يحبُّ، فهي تصلح للاستعمال عند جميع المُحبِّين، وهي مما يجري مجرى الأمثال في شيوعه وتقبُّل الناس له.

ويقول في خاتمة قصيدته «الذِّكرى» من ديوانه «ليل البلبل المسحور» يندبُ حظَّه العاثر[٣٧]:

نسَجَ الدَّهرُ لحَظِّي دارةً رُبَّما أربَتْ عليها العنكبوتُ

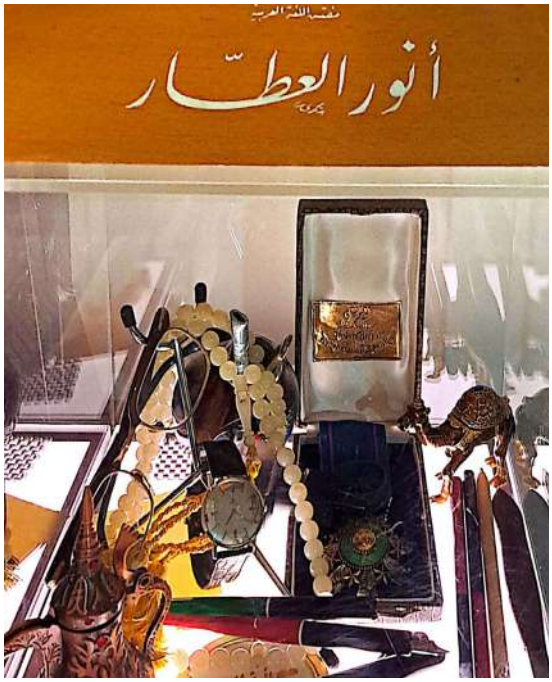

أدوات العطار في منزل ابنه الدكتور هاني في أمريكا (القم والنظارة والمسبحة و...)

فهذا البيت يجتذبُ كلَّ مَن يُعاني من الحظِّ العاثر، ويحلو له أن يُردِّدَه شاكيًا من تقلُّب الحياة، ولا شكَّ أن في الشَّكوى راحةً، وفي بثِّ المعاناة شفاءً من المعاناة، فهو يصلح أن يجري مجرى الأمثال.

وقال في خاتمة قصيدته «ببغاء الصَّدى» من ديوانه «ليل البلبل المسحور» بعد أن استطرد في التأمُّل والشكوى[٣٨]:

أظَلَّني شَجوٌ بَعيدُ المَدى فصُحتُ في يأسيَ: «هل من مُعينْ»؟
فجاوَبَتْني بَبَّغاءُ الصَّدَى: «هل من مُعينَ» ثم سادَ السُّكون

فهذان البيتان يستطيب التغنِّي بهما كلُّ مَن يشعرُ بالوحدة والغربة في الحياة، وكلُّ مَن يُعاني من التشتُّت والضَّياع، حتى كأنَّ الكون لم يعد فيه أحد، فإذا استغاث المرء وطلبَ العون لم يجد إلا الصَّدى يُردِّدُ صوته، ثم يتلاشى الصوت والصَّدى، ويُخيِّم السكون. فالبيتان مما يجري مجرى الأمثال، ويجتذبان كثيرًا من الناس، ممَّن يُعانون من الوحدة في دروب الحياة الموحشة.

ممّا تقدَّم يظهر أن أنور العطار كان حريصًا جدًّا على أن تكون أبياته وقصائده في غاية الجودة والإتقان، ويدلُّ على ذلك ما عرضتُه من أبيات تصلح لكلِّ ما هو عامٌّ وشامل، وتجري مجرى الأمثال، بفضل ما تحتويه من معانٍ دقيقة عذبة، وأسلوب سلس يدخل عالم القلب، ويذوب في تفاصيله، ويختلط بما فيه من الأماني والأمل.

(36) الأعمال الشعرية الكاملة ص271.
(37) الأعمال الشعرية الكاملة ص379.
(38) الأعمال الشعرية الكاملة ص394.

الخاتمة والنتائج

تحدَّثتُ في المبحث الأول عن أهمية الخاتمة في النقد القديم والحديث، وعناية الأدباء والشعراء بها، واهتمامهم بأن يكون المطلع والختام على درجة عالية من الجودة والإتقان، لأنَّ المطلع منوط به أن يجتذب انتباه القارئ والسّامع، والخاتمة هي آخر ما يبقى في الذهن والوجدان من المعاني والصُّور والمشاعر.

ثم تكلَّمتُ في المباحث الثلاثة التالية على أنواع الخاتمة وخصائصها ووظائفها في شعر أنور العطار، وعرضتُ بالتَّفصيل مع الشواهد ثلاثة أنواع منها، هي: الخاتمة التصويرية، والخاتمة العاطفية، والخاتمة التي تتضمَّن الحكَم وتجري مجرى الأمثال.

وقد انتهى البحث إلى النتائج التالية:

١- اهتمَّ النُّقاد والأدباء القدماء والمحدَثون بالخاتمة، وأدركوا أثرها في البناء الفني للقصيدة، وتحدَّثوا عن مواطن الجمال فيها، واستشهدوا عليها بأشعار الفحول، كأبي نواس وأبي تمّام والمتنبي وغيرهم.

٢- ميَّز النقاد القدامى بين ما يمكن تسميته بالقصائد المُقفَلة، والقصائد المفتوحة، حيث يكون للأولى خاتمة بمثابة القفل، تُنبئ بأنَّ القصيدة قد انقضت، ولا مزيد عليها، أما القصائد المفتوحة فهي ما جاء فيها البيت الأخير مثل بقية أبيات القصيدة، دون أن يتضمَّن أيَّ إيحاء أو إشارة بانتهاء القصيدة، ومدحوا النوع الأول وأثنوا عليه.

٣- اهتمَّ الأدباء في العصر الحديث بالخاتمة، وأولوها عنايةً فائقة، حتى أصبحت فنًّا قائمًا بذاته، له معاييره ومحاسنه، وأكثر الشعراء المعاصرين اهتمامًا بالخاتمة الشاعر السوري عمر أبو ريشة، الذي قيل فيه: إنّه يكتب من أجل الخاتمة، وأما باقي القصيدة فهي أنغام وتمهيد.

٤- من الشعراء المعاصرين الذين اهتموا بالخاتمة الشاعر السوري أنور العطار، الذي حرص أن تكون الخاتمة، في أعماله الكاملة، ذات مزايا فنيّة وأسلوبية تجعلها تختلف عن سائر الأبيات وتتفوَّق عليها .

٥- ظهر في البحث أنواعٌ ووظائف مختلفة للخاتمة عند أنور العطار، وقد تناول البحث بالتفصيل ثلاثة أنواع هي:

أ- الخاتمة التصويرية، وفيها يُنهي العطار قصيدته بصورة فنية، أو مشهد حسِّي، يحمل كلَّ ما أراد الشاعرُ أن يُوصله إلى القارئ من معانٍ وصور وخيال وأحاسيس، وهذا النوع على درجة فائقة من الجمَال، ولا سيَّما الجمال التصويري.

ب- الخاتمة العاطفية، وفيها يُنهي الشاعر قصيدتَه ببيت أو أكثر، يُحمِّلهما موجةً من المشاعر، تفوق المشاعر الموزَّعة في الأبيات، وتبقى تُخالط وجدان القارئ بعد الفراغ من القراءة.

ج- خاتمة الحكمة وما يجري مجرى الأمثال، وفيها يأتي الشاعر بحكمة أو موعظة أو عبرة، ويصوغها بأسلوب عذب، يغلبُ عليه الإيجاز مع الجودة والإتقان، ومثل هذه الخاتمة ترتبط بحياة كثير من الناس ومواقفهم وظروفهم، فيطيب لهم تَردادُها وإنشادها، فتشيع على الألسنة كما تشيع الحكم والأمثال.

٦- يصبُّ هذا البحث في مجال النقد الأدبي الحديث، ويُمكن توظيفه في إغناء الفنّ الشعري، وتوجيه الشعراء إلى الاهتمام بالخاتمة، باعتبارها الجزء الأهم في العمل الفني.

٧- أخيرًا يمكن القول بأن الشاعر أنور العطار كان مُخلصًا للفنِّ والشِّعر، ويَعدُّهما رسالته في الحياة، فجاء شعره في غاية الجودة والإتقان، فضلاً عن عمق الشعور، وسعة الأفق، والتمكُّن من اللغة والأساليب.

مصادر البحث ومراجعه

١- الأمثال، لابن سلام (ت ٢٢٤هـ)، تحقيق: الدكتور عبد المجيد قطامش، ط١، دار المأمون، بيروت، ١٩٨٠.
٢- أنور العطار: الأعمال الشعرية الكاملة، جمع وإعداد: هاني أنور العطار، ط١، دار الفكر، دمشق ٢٠٢٠.
٣- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، لابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة.
٤- تحسين القبيح وتقبيح الحسَن، لأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩)، تحقيق: نبيل عبد الرحمن حياوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.
٥- التمثيل والمحاضرة، للثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ط٢، الدار العربية للكتاب، بيروت ١٩٨١.
٦- جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، دار الفكر، بيروت.
٧- خزانة الأدب، لابن حجة الحموي (ت ٨٨٧هـ)، تحقيق: عصام شقيتو، دار الهلال ودار البحار، بيَروت ٢٠٠٤.
٨- زهر الأكم في الأمثال والحكم، لنور الدين اليوسي (ت ١١٠٢هـ)، تحقيق: د محمد حجي، ود محمد الأخضر، ط١، الدار البيضاء ١٩٨١.
٩- شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي، مؤسسة هنداوي، القاهرة ٢٠١٢.
١٠- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي (ت ٨٢١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٥هـ)، ط١، المكتبة العصرية، بيروت وصيدا ١٤٢٣هـ.
١٢- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت ١٩٨١.
١٣- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، للدكتور شوقي ضيف، ط١٢، دار المعارف، القاهرة.
١٤- كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٤١٩هـ.
١٥- الكليات للكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٦- مجلة بيت الشعر الإلكترونية في الموصل، بحث «القصيدة العمودية، جماليات الخاتمة، قراءة في نماذج من الشعر الموصلي المعاصر» للدكتور جاسم محمد جاسم.
١٧- مجمع الأمثال، للميداني (ت ٥١٨هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.
١٨- مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت ٢٠٠١.
١٩- موسوعة أمراء الشعر العربي، لعباس صادق، دار أسامة، عمان ٢٠٠٢.
٢٠- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقّري التِّلمساني (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
٢١- نقد الشعر، لقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)، ط١، مطبعة الجوائب، القسطنطينية ١٣٠٢هـ.